من ذخائر الدرس الصرفي في الشعر العربي القديم
ـ أبنية المشتقات نموذجا ـ

بن فطة عبد القادر
أستاذ محاضر ـ أ ـ
جامعة مصطفى اسطمبولي ـ معسكر

الملخص:

إنّ تطور الدرس الصرفي يعكس لنا المستوى اللغوي الذي وصل إليه القدامى بفضل اقترابهم من القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف اللذين فرضا وجودهما على الحقل اللغوي. فتأثيرهما كان جوهريا فيه خاصة في المكونات الصرفية التي نالت الكثير من الاهتمام لدى الشعراء، الذين كانوا ملتزمين بصفاء لغة شعرهم، فقيّدوا كلماتهم بأبنية صرفية لتحقيق الدلالات المخزونة فيها بصورة أفضل. إنّ ضبط الأبنية الصرفية في الشعر ضرورة أساسية في سلامة الأفكار الواردة في إبداع الشاعر وتكثيفه، وتيسير فهم المقاصد لتكون دقيقة لدى المتلقي.

الكلمات المفتاحية
المكونات الصرفية، دلالة الأبنية في الشعر العربي.

.

مقدمة:

تزايد الاهتمام بالمكونات الصرفية لدى الشعراء حتى بلغوا بها مبلغا عجيبا، وُزِّعَت في ثنايا القصيدة توزيعا مدروسا لتبدوا متماسكة غير مبعثرة. و لا غرو فإنّ دور فحول الشعراء كان لامعا متّنوا دعائمها فتشكل من أشعارهم طرازا فريدا أخضعوها للرقي الصرفي المؤصّل في الكتاب والسنة. كما استوعب أصحاب النباهة من الشعراء صورها، فكان لهم الاستعداد القوي في التمكن منها، وجعلها المحافظ على هيكل القصيدة من التصدع، وهم بذلك يفيدون في العطاء اللغوي، و إنمائه في رحاب الإنتاج الشعري غايتهم تثبيت هذه المكونات و الإثمار فيها.

نحاول من خلال هذا البحث أن نبيّن عمل الشعراء على إزالة ما لا يليق بأصالة الشعر العربي برؤية متميّزة، وإدراك منطقي يعمل على حيويتها المنبعثة من التراث الحقيقي بروية حكيمة تدفعهم إلى طموح لا يحدّه عن الاستمرارية، فوراثة المعارف أمر لا يمكن إلغاؤه ولا الوقوف ضدّه حتى يدخل سرّة الصرف العربي بثقة، فيكشفون لبّها، ويبرزون معالمها المشرقة بفهم علمي، و لا يكونون متطفّلين عليها.

واتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي للوقوف على الأسس المتينة التي آثرها الشعراء لحماية الشعر العربي و إحكام توضيبها؛ لأنّ الابتذال بدأ يدبّ في أوصاله وأخذت الرطانة المكدّسة في النفوس المتعسّفة تتأهّب للتخلص من رحيقه القحّ، و الانقضاض عليه ليأتي الفكر اللغوي الشعوبي المسموم مكتسحا أصالته.

السوال المطروح: هل تمكّن الشعراء من استمالة القراء لتذوّق أشعارهم عن طريق حسن توظيف المكونات الصرفية؟

حقيقة المكونات الصرفية في الشعر العربي:

اجتمعت أصالة المكونات الصرفية و جمال الشاعرية على السليقة العربية الخالصة و الذوق السليم المصقولتين، استلهموهما من مجاميع ملكتهم التي تعجّ بالخيال الملتهب و الأنفاس المتّقدة، تجد الشعراء من خلال هذا التفاعل راضين ببيئتهم مقتنعين بشاعريتهم التي هي منبع التغني بعروبتهم ما يدلّ على شَمَمهم. إنّ التلازم بينهما ينصع على حقيقته في تصوير التي يحياها الشعراء لا تشوبها الأوضار و الدنايا مشحونة بالعزّة. حاولوا إثبات إحساسهم العميق بالولوج في أجواء ذات إحساس مرهف، يتجلى فيها الإبداع الرفيع بعيدا عن الإسفاف. والمتفهم لهذا المكونات يلمس فيه فطنة ثاقبة و نماء في الأفكار و خصوبة في اللغة، يكشف عن شخصية الشعراء الذين يهزّهم جمال اللغة، و تطربهم الأبنية الرخية، ينتابها الذود عن العربية والثورة على كلّ المستهجنين.

هذه المكونات كانت تصدر عن فهم ووعي لأقيسة اللغة التي يستمدّ منها الشعراء ما يريدون، والتوصل إليها سهل مادام الشاعر ذا فصاحة كالجاهلين، وناصية لغوية كالذين جاءوا بعد الإسلام كالمتنبي و أبي تمام(عبقرية الشاعر أن توائم في تناسق فريد بين متطلبات العرف اللغوي للجماعة اللغوية التي يعيش بينها، و الصياغة الشعرية لقصيدته، و لا يمكن الفصل بين أجزاء لحظة خلق الشعري بحيث يمكن القول بأنّ صياغة البيت من الشعر تكون نتيجة لعدد من التفاعلات المختلفة التي يموج بها ذهن الشاعر.)[1]

إنّ منطق التذوّق تمدّه تجربتهم الثرية في مجال النظم، و من هنا كانت مسؤوليتهم ثقيلة لتكون الأبنية التي وظفوها سبيلا نبيلا للتهذيب و للنهضة بالإبداع الشعري في أفضل منزلة، فتتعالى الغايات ويشرق الشعر باللغة ليكون ذا عطاء، و أقرب إلى التوجيه و التعليم منه إلى اللغو والغلو(و من المنطلقات الأساسية في تناول أية ظاهرة لغوية في الشعر أن يكون هناك اعتراف كامل بأنّ الشاعر الحق سواء أكان قديما أم معاصرا هو الذي يمتلك اللغة، و هو الذي يبدع بها فيها.) [2] من هنا يجب أن نتبصّر في المكونات الصرفية في الشعر العربي لنلاحظ واقع اللغة العربية يومها، والتفرّس في حقائق الدرس الصرفي للوقوف على دقائق الكلام العربي الفصيح الذي جذب العلماء للاستشهاد والاحتجاج ، بل حفّز بعضهم أي يقرض الشعر لما فيه من التربية اللغوية كالشافعي.

إن المكونات الصرفية قد قويت في الشعر، و متنت أشكالها، ونضجت معانيها، ما جعل الوازع اللغوي يجري في ضمير الشاعر محافظا على روح العربية. كان طموح الشعراء أكبر في التفنّن في توظيف الأبنية الصرفية مما أعطى دليلا يؤكّد للمتلقي مدى نباهتهم في الغوص في لبّها التي نعمت بجو من الاستقرار في مناكب القصيدة، وحرصهم على أن تكون محصّنة، بحيث تؤمّن لهم إدارة أشكالها والإشراف عليها بصورة تتيح للقارئ معرفة ما يدور في ملكة الشعراء. ولم تقتصر جهودهم على ما تمتلكه قرائحهم بل استثمروا ما يكتنزه الدرس الصرفي في القرآن الكريم و السنة الشريفة. و بحكم ارتباط الشعراء بسنة الفصحاء أصبحوا يتأثرون بطابع لغتهم الزاهرة فأخذوا ينهلون ما حوت من ذوق عال، و امتصوا منها أجود الأبنية(نحد للكلمة في الشعر قيمة مميّزة تنبع هذه القيمة من حقيقة أنّ الشعر نشاط لغوي بالدرجة الأولى ، وتعبير فنيّ قوامه اللغة ، و الكلمة فيه من أهم الوسائل الشاعر في إبداع الدلالة ، اعتباره المثير المادي للمعاني.)[3]

---

[1] . زكريا إبراهيم، مشكلة الفن للدكتور، مكتبة مصر1979، ص144. 185

[2] . انظر محمد حماسة، كتاب اللغة و بناء الشعر مكتبة الزهراء القاهرة، ط11991، ص210

[3] . محمد العبد، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي مدخل لغوي أسلوبي، مكتبة الآداب القاهرة، ط2 1428، ص1

والواضح من الموروث الشعري أنّ كثيرين من الشعراء يتحكّمون في زمام الصرف العربي، وهم الذين رضعوا الفصاحة من رحم البداوة كالمتنبي، فأرادوا أن يذهبوا بالمكونات الصرفية إلى مستوى اللغويين يقدموا صورة مرنة مستحسنة عن رقيّ الشعر، وهي خطوة إلى ربط صلة إبداعهم بأصالة تراثهم. فهمّتهم سمت إلى رفع لغة الشعر إلى طراز مرموق يتقطّر لذّة ليوفّروا في قصائدهم المباهج التي ينغمر فيها القراء. من أجل ذلك أبدعوا في تثبيت القوافي بمكونات صرفية متينة تستقطب الأذواق، مادام في جوفها جمال يفوح بنسائم رخية سكنت الوعي الشعري و صفاء الإيقاع في الأبيات (الذاكرة الجمالية المعرفية للوعي الشعري إذ تتجسد في هذا الفضاء اللغوي الموزون المنظم أفقا و عمودا في وحدات وتقوم بتشكيله جماليا بحيث يكثف ذاته ويستجمعها لكي يصدر عنه المعنى.)[4] إنّ الشعراء قد أتقنوا مضامين الدرس الصرفي، تهمّهم في ذلك المكونات الصرفية فهي ضرورية لتقرير المعاني، و دون عناء وجدوا مسلكا إليها باطّلاعهم على الأقيسة اللغوية فأصبحت معروفة لديهم عبر المحاكاة أو السماع أو التلقين عن ذوي الخبر العميقة، فكانت الطبقة المتفصّحة من الشعراء كشريف الرضي و أبي تمام تأخذ بزمام هذه الحركة، و من هنا وسمهم بعض اللغويين بكياستهم كابن جني و ابن قتيبة وابن فارس، فلم يكن هؤلاء الشعراء أصحاب عبث ولغو تتحكّم فيه نزوات سلبية تخدّر ملكتهم خاصة ذوي الفضيلة كزهير بن أبي سلمى وحسان بن ثابت.

لا يفاجئونا بهذا التسامي، فالبناء اللغوي لديهم تمتد عروقه إلى أصالة اللغة سنّها السلف وعدّوا الخروج عنه إهانة للسان العربي(اللغة هي صورة وجود الأمة بأفكارها و معانيها وحقائق نفوسها وجودا متميزا قائما بخصائصه، فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادّة، و الدّقّة في تركيب اللّغة على دقّة الملكات في أهلها، و عمقها هو عمق الروح و دليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير و البحث عن الأسباب والعلل.)[5]

المكونات الصرفية تعكس نباهة الشعراء القدامى و المتوجّهة بعناية فائقة إلى الصناعة الصرفية التي تنبئك ببراعتهم، فهي تمثّل صدقا جليا في تصورهم اللغوي يتحسس القارئ من خلالها شغوفهم بجمال اللغة. فأشعارهم البديعة تسمح للمتذوّق تقدير احترافهم ومكتسباتهم، فجلّهم كان يحظى بشأن في عصره. فاللغة تمثّل معلما من معالم ثقافتهم مرتبطة بإبداعهم، وانسياقهم وراء مرجعيتهم التراثية، و من خصائص شعرهم اهتمامهم بالأبنية الصرفية التي عدّوها ضربا من الرقيّ الشعري يلجأون إليها لإبراز أصالة اللغة، يطربون المتلقي ببريقها. فالشعر ليس تعبيرا عن المشاعر فحسب بل أيضا ما يزخر به من بنى تركيبية، فلا يخفى على القارئ اللمحات اللغوية الصافية التي تومئ إلى تلهّف

[4]. هلال جهاد، جماليات الشعر العربي دراسة فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 2007، ص 102

[5]. صادق الرافعي، من وحي القلم، المكتبة العصرية صيدا بيروت، 25/3

الشعراء إلى الطائف المودعة في لبّ الدرس الصرفي العربي(و لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة لشاعر جاهلي أو إسلامي إلا سجّلوها و دوّنوها و فسروها و شروحها. ولبذلك انقادت اللغة لمعاصريها من الشعراء و غير الشعراء.)[6]

إنّ حسن توظيف المكونات الصرفية تجعل الشاعر مبرزا لها رغم وجود الومضات الفنية للتعبير، فهي تمدّ النص بطاقة حيوية من رقة الأوزان، و سلاسة القوافي، وعذوبة الإيقاع ما يبثّ الاستجابة لدى المتلقين خاصة إذا تجنّب الشاعر التكلّف في صناعتها. فلمسات الشاعر المنبعثة عن ملكته تشدّ القارئ إلى الانغمار في جوّها. فالشاعر الموهوب يجعلها تنمو دون تصدّع مادامت قوية السبك (الخطاب الشعر الحق، يرمي إلى مخاطبة القوة الوجدانية الانفعالية بحيث تؤثر تجربة الشاعر في المتلقي لتحدث استجابة أو متشاركة وجدانية تقترب من الصوغ الكلي لتجربة الشاعر، بمعنى آخر أن الفهم القائم على أساس أن لغة الشعر لغة تعبير جمالي أو انفعالي يولد القدرة في عملية التوصيل والتلقي.)[7] هذه المكونات لا يمكن أن تتمرّد على لغة القرآن وسنة الفصحاء بل يهلهل لها المهرة من الشعراء، ويعدّونها سموّا للقصيدة ومن المآثر اللغة العربية، هذا دليل على هيامهم بها، وإقبالهم على تلقيها.

و مما زاد في شأن هذه المكونات اهتمام الخلفاء و الأمراء بالمواهب، فلم يكن سماع الشعر مجرد ملهاة و تسلية والعطاء و المكسب المادي بل لابدّ من صدى تولّده اللغة الشعرية من متعة لغوية ، وانسياب الحروف و عذوبة الإيقاع، هذا ما تشهد عليه مجالس خلفاء بني العباس (و كانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين مثل الكسائي والأصمعي، فكان لا بد للشعراء أن يروقوهم حتى ينالوا استحسانهم، و يرى ذلك الخلفاء منهم فيجزلوا في العطاء.)[8]

كانت حرية الشاعر مكفولة في اختيار ما يناسبه، فأصبحت رابطة بين كبار الشعراء مزجوها بفلسفتهم الشعرية، أضفوا عليها أشعة ملكتهم، و ألبسوها رقيّا فنيا، فتألقت في فؤاد لغتهم. و المتتبّع لهذه المكونات الصرفية يرى أنّ البيئة العربية في العراق و الشام كانت من الحواضر المهمة في تجويدها فأُرْسِيْت قواعدها، وهُنْدِسَت صورها، وبرز فيها جهابذة الشعراء كالمتنبي والشريف الرضي و البحتري وحتى البيئة العجمية كان لها نصيب في تطورها بفضل المبدعون الرواد الذين ذاع صيتهم كابن زيدون وابن هانئ بالأندلس.

فالسمة البارزة في هذه المكونات الأصالة التي تتطلب شخصية قوية الإرادة تشكّل ثورة والاستبسال، تحافظ على القيم العربية التي شكّلت حلقة وصل بين الشعراء ولغتهم، وما حوته من ذوق رفيع انصبّ فيه سحرها و أجود ما أنتجته قرائح أبنائها. و هذه محاولة أهل الشعر ناجحة في الأخذ بزمام هذه الحركة التفاعلية بين الإبداع و الناصية اللغوية التي بلغت مرحلة النضج على يد فحول الشعراء

[6] . شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ط8 القاهرة،3 / 139

[7] . عبد الكريم راضي جعفر، الشاعر اللغة، مجلة آفاق عربية، جامعة الموصل العدد20 آذار 1997، ص49

[8] . شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي، 139/3عبد 49

في بيئة رضعت الشعر من رحم السليقة العربية المفخرة التي تباهى بها الموهوبون، وذلك معلم الطبع المتأنّف الذي يعرض الربوع و الأطلال الزاهية كأنّها آهلة. فالمكونات الصرفية من خلال الموروث الشعري تصوير عربي قحّ، و قلب القصيدة ينبض بالحيوية، و يفيض بصفاء الحياة تزاوج فيها الشعر باللغة، فالشاعرية تتوهّج هوى لتقطن لبّها.

دلالة أبنية المشتقات في ضوء نماذج شعرية:

إنّ الشعر العربي حفل بالأبنية الصرفية ومنها المشتقات، أكّدت وعي الشعراء اللغوي، حقّقوا به المجد في المواقع الخالدة، كما كانوا مخلصين في تطهير اللسن من براثن اللحن. مثّلت قصائدهم الثروة اللغوية التي أرخت التربة الفنية لأسمى النماذج، أثبتت وقوف الشعراء إلى جانب اللغويين في تمتين حصون اللغة، و ردّ السقوط. استوعب الشعراء المهمّة واحترموا مسؤوليتهم حتى يكونوا دعاة الأمة، واثقين بصدق الدوافع، هذا ما أدركه شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم، حدّدوا موقعهم في الحقل الدعوي، إنّه الإحساس الذي خلّدهم، و من روادهم حسان بن ثابت من خلال رثائه للرسول صلى الله عليه و سلم[9]

بَطَيبَةَ رَسمٌ لِلرَسولِ وَمَعهَدُ مُنيرٌ وَقَد تَعفو الرُسومُ وَتَهمَدِ

وَلا تَمتَحي الآياتُ مِن دارِ حُرمَةٍ بِها مِنبَرُ الهادي الَذي كانَ يَصعَدُ

استعمل الحسان في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم ألفاظا بناها على البعد الجمالي، فقد عرّج على الصور اللفظية التي تلامس الذوق و تكشف عن الدلالات المتنوّعة. جسّد اهتمامه بالأخلاق الفاضلة للرسول صلى الله عليه و سلم ككلمة" الهادي" جاءت على صيغة اسم فاعل من الفعل الثلاثي "هدى" بمعنى بصّر و هو من الأسماء الله سبحانه و تعالى قال ابن الأثير(637 ه): (هو الذي بصّر عباده و عرّفهم طريق معرفته حتى أقرّوا ربوبيتهّ، و هدى كلّ مخلوق إلى ما بدّ له منه في بقائه و دوام وجوده)[10] فهدي النبي الكريم نواة صالحة تكبر و تتكامل، لأنّه ساع إلى الخير المزهر في رحاب الدين الحنيف، و إسقاط الحظ البائس الذي حاضر البشرية، ودحض الظلم و الضياع اللذين عاناهما الناس قبل البعثة المحمدية. إنّ المتدبّر في كلمة " الهادي" يرى أنها في نماء مستمر، و دلالتها متدفقة تشرف على مقاصد جليلة، وعلى معاني متأرّجة الفضائل هذا ما نجده في قوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ الأحزاب 45 . 46. أراد الرسول صلى الله عليه و سلم أن يقيم معادلة متّزنة ليدرك الإنسان قيمته، و لا يكون وليد نزوة فورية، فمعالمه تبدأ بمعرفة نعم الله فيسحب ذاته من الغريزة إلى الصبغة، تحمل دلالة نقية صافية خالية من التأويل، نذهل حين نقف على ما فيها من رقيّ عن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ،

[9] . حسان بن ثابت، الديوان مطبعة السعادة مصر، ص 81

[10] . ابن منظور، لسان العرب، مادة هدي، دار صادر بيروت 1963م

وتنطوي تحتها الكثير من ملامح الرحمة و الهداية يقول ابن الساعاتي(640 ه) مادحا الرسول الكريم [11]

أضاء هديا وجنح الكفر معتكر ... ووجه حق، وستر الشك مسدول

إنّ إلغاء الموت أمر غريب و مريب يقف ضد إرادة الله في سننه، يسحب الإنسان إلى الشطط، ويحوّله إلى ترسيخ منطق معقّد يشلّ حياته، تناوئه عوالم مجهولة. فالمعادلة الزمنية متّزنة فالأحياء سيصرون أمواتا هذا ما أشاعه المشكّكون في حقيقة الموت، كانوا يزعمون أنه ليس قضاء الله و قدره، وغرضهم في ذلك خسيس، حاولوا بسعي دنيء أن يطمسوا حقيقته، و من هنا دمغهم الفرزدق بقوله[12]:

أرَى الدّهْرَ لا يُبْقي كَرِيماً لأهْلِهِ، وَلا تُحرِزُ اللّؤمانَ مِنْهُ المَهارِبُ

أرَى كُلَّ حَيٍّ مَيّتاً، فَمُوَدِّعاً، وَإنْ عَاشَ دَهْراً لمْ تَنُبْهُ النّوَائبُ

وظّف الشاعر في البيت الثاني اسم الفاعل " مودِّعا" المفردة في سياق عجيب، حاول أن يثبت إحساسه العميق بانغماره في أجواء روحية، فيها قدرة شعرية متميّزة فجّرت فيه هاجس التوبة، وأن الحياة لحظة يأس تتّسم بانغلاق حسي، هذا يدعو حقا إلى التفكير في قدرة الله وعظمته قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ الأنبياء 34 فالموت ركيزة عقدية يحمل عودة الحياة و مباهج لقاء الله من جهة، ويوم حزن عميق للأشقياء، اصطرعت في ذهن الفرزدق خواطر منعت الطمع في الخلد، وأومأت بزوال الدنيا، و الكائنات تحت القدر قال كعب بن زهير[13]:

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وإنْ طالَتْ سَلامَتُهُ يَوْماً على آلَةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ

إنّ رغبة بعض الشعراء في الحصول على المزيد من الشهرة في قلب التيارات الجارفة للتهالك على الآثام، تسيطر عليهم الأهواء و الأعصاب التي يغذيها الاتّهام، هذا ما جرى في العصر العباسي على يد الشعوبيين على رأسهم بشار بن برد الذي شنّع العرب، مبطّنا أحقادا دفينة، من ذلك هجاؤه لواصل بن العطاء(131 ه) مكفّرا جميع الأئمة [14]

الأرض مُظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذْ كانت النارُ

في هذا البيت وظّف كلمتين على وزن اسم الفاعل و هما" مظلمة و مشرقة" يريد بشار تأليه إبليس في تفضيل النار على الطين، محتقرا العلماء عابثا بعلمهم و عرقهم، يراهم أنذل الخلق متعنّنا في الإسفاف بهم؛ في هذا البيت تهجّمه على المعتزلة مفرغا سخطه على أقطابهم، فسمة العنصرية الفارسية راسبة

---

[11] . الفرزدق ، الديوان، شرح: علي فاعور، دار الكتب العلمي، ط1 1407، ص85. 86

[12] البوطي سعيد رمضان، مختارات من أجمل الشعر في مدح الرسول، دار المعرفة، دمشق ط1 1408،ص27

[13] . كعب بن زهير ، الديوان، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت 1417، ص 65

[14] . انظر بشار بن برد، مقدمة الديوان، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر القاهرة، ط2 1278، ص 24

في رحمها. حتى أنّ واصلا أهدر دمه(أما لهذا الأعمى الملحد المشنِّف المكنَّى بأبي معاذ من يقتله. أما و الله لولا أنّ الغيلة سجية من سجايا الغالية ، لبعثت من يبعج بطنه على مضجعه ، ويقتله في جوف منزله و في يوم حفله)[15]

يقدّس ديانته المجوسية النتنة التي تبجّل النار و يؤثرها على الطين الذي خلق منه الإنسان، فمذهبه الزرادشتي يتوّهم أنّ للعالم إلهين: إلها للنور وهو الخير في مفردة"مشرق"، و إلها للشر في كلمة "ظلمة".

دلف العرب الكرم يجوسون خلال الجزيرة العربية حاملين جودهم مرميين معاقده مانحين أدب الضيافة. فالجود أصيل و خصب في سرّة الخلق العربي، يلتقطون أخفى همساته، فهو يسكن محل نياطهم، يبوح به الشعراء في قصائدهم، به تمكّنوا من رسم واقعهم، هذا ما رصع به حاتم الطائي شعره[16]

بلادَ اِمرِئٍ لا يَعرِفُ الذَمُّ بَيتَهُ لهُ المَشرَبُ الصافي وَلَيسَ لَهُ الكَدَر

أَبشِر وَقَرَّ العَينَ مِنكَ فَإِنَّني أَجيءُ كَريماً لا ضَعيفاً وَلا حَصِر

وردت في البيت صيغة مبالغة "كريم" من الفعل كَرُم و الكرم ضد اللؤم، يجمع الفضائل والعزّة، هذا ما أشاد به الشاعر إنّها حقيقة لا تخفى على أحد، أصل المقَلَّد المتّبع لدى العرب، فهذا المشتق يفصح عن بطانة حاتم و يبوح عن موروث مؤصل في سريرته، فالكرم يسكن محل نخوته، كان قي عيشه غير رعديد بل مع الضيف مغتبطا باعثا حركة السخاء كالغيث المنساب، سدل الستار عن الشحّ إلى غير رجعة، يمدّ يده إلى كلّ طارق، يغدق ما راق له ما يطفو على ما يملك. إلى جانب هذا فهو موصول بالمروءة متماس مع بيئته، يسري الندى في عروقه. فالرجل دخل حقل الخلود الذي نشمّ عبير الصالحين رغم أنّه عاش عصرا انقطع فيه الوحي، فالكرم ليس تزجية لدى حاتم الطائي بل هو تعبير عن جمال الخلق.

إنّ الضائقة التي أحاطت بالبلاد الإسلامية، و تكالبت فيها قوى البغي و الشر من العجم الفرس و الروم سعت إلى تمزيق الأمة و تفرقتها، وزرع فيها الهوان و الضياع دفعت بالفحول إلى رفع عن كاهله الأعباء، و فتح الطريق إلى النصر حتى يستمرّ الامتداد مع شموخ السلف هذا ما نلامسه في العصر العباسي حيث ركضت الجيوش الإسلامية وراء العدو لاسترجاع ثغورهم المغتصبة، هنا جاء الشعراء لتخليد المآثر وفي هذا الباب يقول المتنبي يمح سيف الدولة[17]:

عَلى كُلّ طَيّارٍ إِلَيْهَا برِجْلِهِ إذا وَقَعَتْ في مِسْمَعَيْهِ الغَمَاغِمُ

استعمل العرب في كلامهم صيغة "فعّال" للحِرف و الصنع كالنجّار و النسّاج والحدّاد، ولابدّ أن تظهر في طريقة الأداء قال ابن يعيش (643 ه): (وإن كان شيء من هذه الأشياء صنعة ومعاشا يداومها

---

[15] . حاتم الطائي، الديوان، شرح أحمد راشد، دار الكتب العلمية بيروت، ط3 3142،ص 23

[16] .. العادل خضر، نسيان ما لا ينسى، الدار التونسية للكتاب، ط1 2015، ص28/27

[17] . المتنبي ، الديوان، المكتبة الثقافية لبنان، ص 389

صاحبها نسب على فعّال فيقال لمن يبيع اللبن والتمر لبّان و تمّار. ولمن يرمي بالنبل نبّال.)[18] ، فصيغة المبالغة "طيّار" توحي إلى سرعة الجياد ورشاقتها في المعركة، وتدل على الكرّ و الفرّ، فإيقاع الكلمة يشعر بعمق المضمون وحقيقة المشهد. نقل لنا صورة اجتمعت فيها أسباب مهارة الممدوح الذي يصول و يجول في ساحة الوغى دون أن يعيقه أحد. فالشكل و المضمون وحدة متفقة السمات والخصائص ل"طيّار" التي توحي إلى مدح الممدوح الموفّق في ردع العجم، و إلحاق الخزيّ بجند و العنة بالقادة.

من النوادر التي خلّفها الشعراء هو مدحهم للأمراء الصغار، فابتنوا الصيغ و عرفوا هندستها، فبدت عنايتهم فائقة في الضبط و التهذيب هذا ما نلامسه في قول ابن حمديس الصقلي[19]:مادحا أبا الحسن علي بن يحى

لي هوىً آوي إليه مرحاً غَيرَ أَنّي بِالنهى عَنهُ حَيود

استقى الشاعر صيغتين من صيغ المبالغة القياسية في الكلمتين" مَرِحا و حيُود" من حظيرة الدرس الصرفي، أضاف إليهما ما تزخر به كياسته، فارتقى بهما في طمأنينة واثقة في الإشادة بممدوحه. "فمَرِحا" على وزن فعِل، انطلق منها الشاعر يعالج الحسرة التي ألمّت به بعد سقوط صقلية الهبة النفيسة التي تركها الآباء و الأجداد، و موت المعتمد الطود العظيم، فواجه الزمن بأثقاله، فحملت الكلمة الآثار الباقية فوعت ما يستودعه كلّ ما خلفتّه النوائب (و قد سبق شعراء العرب إلى الواقعية بمعناها العلمي الحديث؛ فهو يكثر في قصائده من الحديث عما يجول بالنفس، و ما يشعر به من آلام الحياة و أحداثها، و ما كان يعتريه من حيرة و شك، وسخط على الحياة حنينا ، ومن أمل و ابتاسم و تفاؤل و ثقة به حنينا آخر،كل ذلك مع الجد في التعبير و مع تمثيل حركات نفسه و عقله و أسلوبه)[20]

أمّا كلمة"حيود" فعلى وزن فَعُول صيغة المبالغة من الحيد أي ترك الجادّة و الصدود عنها (كل اسم على فعول يحمل دلالة الكثرة، و الزيادة عن المستوى الطبيعي، فتطلق صيغة فعول لمن كثر منه الفعل)[21] ، فالشاعر ترك العبث و اللهو وحاد عنهما، والتزم بطريق النجاة مبتعدا عن البراثن لتقدّمه في السن، و تكالب العجم على أمته، فكان أريبا في التملّص من الاستهتار، فهذا الوزن يحمل يقين ابن حمديس أنّه سيدخل التراث الشعري من بابه الأوسع بما آتت به فطنته من الثمرات في اكتشاف الكثير من الحقائق التي كانت خفية لتقدّمه الفكري، واتّساع قريحته(استطاع أن يرتفع بالشعر الصقلي ارتفاعا يجعل له موضعا بين سائر الشعر العربي)[22]

---

[18] . ابن يعيش، شرح المفصل، . إدارة الطباعة المنبرية مصر 13/6

[19] . ابن حمديس ، الديوان، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر لبنان 1379 ،ص5 15

[20] . محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب الأندلسي التطور و التجديد، دار الجيل بيروت، 789

[21] . ابن مالك ، تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد تحقيق: محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي القاهرة 1967،1 167/

[22] . إحسان عباس، العرب في صقلية، دار الثقافة بيروت، ط1 1875، ص 308

الحماس إلى السيرة النبوية يمثّل تطلعا رخيا في أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم، يجبر العيش في رحابها، و لا يمكن أن تكون عاطفة آنية، بل ضرورة الوقوف عند قيمها الأصيلة المرتقية. شجاعة الرسول صلى الله عليه وسلم أروع الجوانب وأكثرها إضاءة، إنّها ظاهرة صحية و تكوين نفسي فيه تجميع القوى و توحيد الشمل لهذه الأمة، و من الشواهد الشعرية التي وردت فيها صرخة متطلّعة إلى من يكشف غشاوة الواقع المرير قول كعب بن زهير[23]

إِنَّ الرَّسُولَ لَنورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

إنّ الرقيّ الصرفي للفظ "مسلول" الذي جاء على صيغة اسم المفعول من الفاعل الثلاثي سلّ يسلّ أي استأصل الشيء وأخرجه بلين، و نقول سيف سليل ومسلول، هذا المشتقّ فيه غذاء روحي، و دواء نفسي يقذفه الله في النفوس الكبيرة، مع ما فيها من فوائد جليلة يدعو حقا إلى الاقتداء بشخصية النبي الكريم، و التدبّر في قدرته العجيبة المتجليّة في أنبل خَلْقه.

لنا مع المفردة وقفة تأمل في المعجم الدلالي للقرآن الكريم نستجلي بعض معالمها، ونقلّب النظر في رقيّها داخل السياق، ومحاولة المقارنة بينها و بين معناها التقليدي عند العرب، فالشاعر هذّب الكلمة ورفع من شأنها، وخصّها بفِحَالة الرسول صلى الله عليه وسلم لتكون على قدر كبير من الدقّة و الإتقان و التقيّد بالأحكام، هذا القدر من الدقّة كان مثار انتباه العرب و العجم و إعجابهم به. فما سمعوا من قبل من هو أجود رجلا، وأكبر شأنا، وأسرع نخوة، حتى يتمكّن الخاطر من التأمل في حقائق تلك المفردة ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكرها يستشعر عظمة الرسول صلى الله عليه و سلم، ويستنير القلب بنور الله المعرفة قال تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ الأحزاب 46 فالرسول صلى الله عليه و سلم نور لا لُبس فيه لا يترك للباطل شبهة إلا فضحها، هذه الكلمة ربطها الشاعر بالسيف رمز الشجاعة، إنّه وصف شامل للتقوى وتخويف الفجرة من مخالفة الدين، وترهيب أهل العصيان و مؤاخذتهم على عملهم.

فشجاعة النبيّ الكريم تقرّرت بموجب مقاييس أعلى رتبة و أجلّ قدرا و هي موضع اتفاق. إنّها الأصل الأعظم، والركن الأهم في شخصية الرسول صلى الله عليه و سلم ليجد مكانه رحبا في القلوب التي لا يمكن إنكار صحتها، ورفض واقعيتها لما فيها من ليونة و تأني، فالنبيّ الكريم حمى المظلومين في الأرض من أحقاد الظالمين وتعسفهم، فهو خصم لأهوائهم. ومما لا ريب فيه أنّ الرسول صلى الله عليه و سلم الجواد المعطاء بما يملك من بركات سيظل حاميا للحق والعدل مادام محكوما بالمنطلق الرباني.

[23] . كعب بن زهير ، الديوان، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت 1417،ص65

ركب بعض الشعراء القلق و جفّ مزاجهم و ارتعشت أحاسيسهم نحو أعدائهم، فأخذوا يقدحون حسبهم، ويمنحون صور اللؤم و النذالة، تهبّ في داخلهم نفحات حارقة لعلّها رسالة مقت و سخط. و صاحبنا جرير عمد إلى أسر ضغينته و حصره في ذم أعدائه و الردّ على مبغضيه يقول في هذا الصدد [24]

يَفخَرُ بِالمُحَمَّمِ قَينُ لَيلى وَبِالكيرِ المُرَقَّعِ وَالعَلاةِ

آثر الشاعر توظيف صيغة اسم المفعول في بيته للتنكيل بأعدائه، و إفراغ شحنته ضاحكا بهم ممستمرّا في سحقهم في قوله" المُحَمَّمِ والمُرَقَّعِ" فالأولى من الفعل الرباعي حمّم أي سخّن، فجرير يريد ألا يمنح الخلود لأعدائه يقصد الزبرقان و بني طهية و في نفس الوقت يلمّح إلى الفرزدق، يقبل على المهجو كاشفا قبح هيئته و قد سخمتها الحمم بأوضارها، فهجاؤه بهذا المشتقّ يؤلم في سخرية و تقطيب. يستعجل جرير الانتصار عليهم بتكريس الشعر لتحقيق رغبته المتدافعة في نفسه، فصيحته تعالت وتطاولت ضد قوى الشر كما يراها حين طعّم بيته باسم مفعول آخر في قوله" المُرَقَّعِ" من الرباعي "رقّع" جذوته بقيت موقدة لتلهب خصومها بشراسة، كان لها وقعها عليهم أفقدهم مهابتهم حين جعلها بين كلمتين قاتلتين"الكير والعلاة" فالكير ينفخ الرائحة النتنة بيد الحداد و هو يحمل السندان أي العلاة ، وجعلهم في أروقة الانكسار، مستعجلا نكبتهم و تقويضهم.

رسم الشعر معالم الدين و أبرز الصورة الجديدة للعقيدة الإسلامية، و أفلح في تصوير نعمة الخالق بأجلّ الصفات التي لا يمكن أن تكون بعيدة عن الفطرة. إنّ خطوة الشعراء في التوحيد استردّت العقول من الضلال والقلوب من الزيغ، و هيئت الجو السليم لخوض معركة الدعوة، فهذا كعب بن زهير وعى وعيا نابعا من إدراكه لدواعي الانتصار الدين الجديد قائلا [25]

فَقُلْتُ خَلُّوا طريقي لاَ أَبَا لَكُمُ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمنُ مَفْعُولُ

وقف كعب من خلال هذا البيت موقفا نبيها أمام مقاصد الإسلام و تعاليمه، وأشار إلى أنّه لن يكون من المارقين الذين يجدون غضاضة في التكيّف مع الدين الحنيف، و حرجا في الاستنصار بقوة الله تعالى، كان صريحا في مجابهة الشرك، وثيقا في التعامل مع الرسول صلى الله عليه و سلم و صحابته. هذا ما نلمسه في كلمة " الرحمن " على وزن فعلان صفة مشبهة التي توحي إلى الرأفة بالمرحوم، ودفع الضرر عنه قال تعالى: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾الفرقان 26.إنّها عند البشر من الكيفيات النفسانية لأنّها انفعال، ولتلك الكيفية اندفاع يحمل صاحبه على أفعال وجودية بقدر استطاعته و على قدر قوة انفعاله، فالبيت كلّه نغمة إسلامية، فيها كثير من الملامح العقدية والنفسية. ولا شكّ أنّها فتحت رؤية على عدم المفر والهروب من قضاء الله وقدره، و لعلّ هذه المفردة أضفت على شعره الصفاء والنقاء، بقيت من أهم المعطيات المصيرية في الفلاح والنصر.

[24] . جرير، الديوان، دار بيروت للطباعة و النشر 1406، ص70

[25] . كعب بن زهير، الديوان، ص65

ظل موقف الشعراء من القذارة من الناس مرتبطا بمواقفهم الرخيصة لأنّهم سجلوا تحريضهم على الشرّ و الضرر، و قدّم هؤلاء الشعراء أطماعهم الشخصية في تمزيق دواعي الخير، إنّ فكرتهم في كشف البعد العقدي الذي كان يساور نواياهم الخبيثة هذا ما أشار إليه حسان ابن ثابت في قوله[26]

وأنت زنيم نِيط في آل هاشم كما نيط خَلْف الرّاكب القدح الفرد

فكلمة "زنيم" صفة مشبهة من الفعل زَنَم و هو من زنمتي أذن المعز، و يطلق على من لا نسب له و يدعي ذلك و قصد بها الوليد بن المغيرة. هذا المشتق سجل فيه الشاعر نموذج المعبّر عن هذا المارق الذي أصبح لوحة خصيصة لكلّ عِيّ امتلك القدرة على الجور، و شنّعه القرآن في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ القلم﴾13

قدّمت المفردة الاتجاه الذي كان عليه الرجل من غضاضة ضد الدين، لم يجد حراجة في تعاونه مع الظلم، ينتهز كلّ فرصة للوصول إلى غايته البذيئة، فحسان رسم تكالبه وتخفيه وراء حجاب الكفر لتقويض وحدة المسلمين .

ظلّ الشعراء أوفياء للخلفاء و الملوك، و لم يكن شعرهم غائيا عن مدحهم والإشادة بهم، بل دخل الشعر بلاطهم و رسم صورهم، وتابع دقائق الأحداث، وكانوا حريصين على التنويه بخصال الحكام. و كان وقوف الشاعر في إطار القيّم الأصيلة خاصة للذين خدموا الأمة ودافعوا عن ثوابتها كعمر بن عبد العزيز الذي قال فيه الفرزدق[27]

فعُجْتُها قِبَلَ الأَخْبارِ مَنْزِلَةً * * * والطَّيِّبِي كُلِّ ما الْتاثَتْ بِهِ الأُزُرُ

في البيت صفة مشبهة" الطَّيِّبِي" جمع مذكر حذفت النون للإضافة مفرده طيّب من الفعل طاب أي لذّ والطيّب ضد الخبيث. هذا المشتق يحمل شموخ الرجل الذي رفع عن كاهله أثقال رعيته، و شقّ طريقه إلى تحقيق العدل الذي عجز عنه حكام بني أمية الذين سبقوه، و يملك أعظم قوة تتجلى في الانتصار للحقّ، و تأكيد الجانب الرجولي في تثمين المواقف المشعّة، وتخليد الأحداث. فكلمة" الطيّب" حافلة بالنضال العتيد ضد الشرّ تعالت في أرجاء الخلافة الإسلامية يهيئ العقول لتقف موقفا واحدا في توحيد الصف و ردّ التمزّق، تحمل الأمن والخير و نوّه القرآن بها الصالحين ووصفهم بها في عدّة مواضع منها قوله تعالى: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ سبأ 15

و الواضح في هذا التفاعل تنويه الشعراء بأصلة الأبنية، و إثباتهم حبّهم لها، وتحقيق صدقهم لها فتواردت في الموروث الشعري مواقفهم تقوّي سجّل تفاخرهم بلغتهم. فشغوفهم بها يمثّل حركة تنفخ المآثر في التراث العربي و أصوله المجيدة. فالخبير ببواعث الشعر العربي في هذا المجال يطلّ على ما في ملكة الشاعر من توّهج الإباء في تحقيق مهمة و هي الغيرة على نسائم اللغة العبقة.

خاتمة:

[26] . حسان بن ثابت ، الديوان ، ص100

[27] . الفرزدق ، الديوان، ص165

إنّ حرص الشعراء القدامى على المكونات الصرفية و المحافظة على أصولها لم ينبعث من تقليد أو اللاوعي، إنّما عن قناعة و ضرورة أكّدت الالتزام بأصالة الدرس الصرفي لترفع الحركة الشعرية بروافد لغوية، ما أمّن استمرار بقاء روح العربية، و دفعها لتحصين نفسها من الاندثار وجعلها مركزا حضاريا راقيا يفرض كيانه على اللغات الأخرى. إنّ المتأمّل إلى هذه الأبنية الصرفية للمشتقات يرسم صورة نيّرة في ذهنه العصور الخالدة للفكر اللغوي، ويستوعب أنّ الشعراء تركوا لحياتهم حيّزا لغويا في نظمهم، و من الطبيعي أن يدفعهم هذا الحرص بأن يتمسّكوا بلغتهم تمسّكا صادقا، فقسوة العجم ضارية و شراستهم الظالمة استباحت اللغة العربية.

هكذا سجّل الشعراء مجد لغتهم، و أدركوا أنّها المنقذة و المالكة لزمام الأمانة العلمية، ولّت في ضمير أبنائها فقوّة الإباء، و تدفع الباحثين إلى إعادة النظر في أشعارهم حتى لا يضيّعوا خصائصها، و يعبّروا عن الجانب الوجداني والحسي بمكونات صرفية كانت تلوم أماراتها في الموروث الشعري الفصيح.

التوصيات:

1 . ضرورة الاستقراء العميق للموروث الشعري والتغلغل إلى جوهر المكونات الصرفية، والتقلّب في مناحيها للاستمتاع بلطائفها.

2. الرجوع إلى حظيرة الشعر العربي الأصيل للتأكيد من غزارة الأبنية الصرفية، وسعة الذخيرة التي يكتنزها الشاعر العربي.

3. استظهار ملكة الشعراء القدامى لتنشئة الذوق الشعري السليم، و تعلّم الأسلوب الرصين تجنبا للزلق في نظم الشعر.